

الحق في الخصوصية في القرآن الكريم

بقلم / محمد بسدر

يجد الباحث في آيات القرآن الكريم ، ما جاء منها تفصيلاً في عدد من الحالات الهامة ، أو تأصيلاً بينت السنة الشريفة نماذج لتطبيقاته ، تقيناً شاملاً لذلك الحق في الخصوصية الذي لا يجوز لأحد ، حاكماً أو محكوماً ، أن يفتات على صاحبه — في شأنه . ويبدو في هذا التنظيم الذي مضى عليه أكثر من أربعة عشر قرناً ولا يزال يسبق كل تنظيم عرفته الحضارات إلى يومنا هذا فاعلية متعددة الوسائل منها التريسة الدينية والزجر بالعقوبات الآخروية أو منها العقوبات الدنيوية التي يبلغ بعضهم — "الحد" ويكفل أعمال أكثرها "التعزير" ، ومنها حق الدفاع الشرعي الذي قد يصل في الردع إلى غاية المدى .

وينبغي لنا أن نقسم البحث إلى ثلاثة أقسام وخاتمة ، فنأتي في القسم الأول — بالمبادئ العامة في القرآن في شأن حق الخصوصية وما جاء فيه في حالات قد يجوز لنا أن نعتبرها وجهاً من أوجه التطبيق النموذجي لهذه المبادئ العامة .

ونأتي في القسم الثاني بما جاء في السنة النبوية من تطبيقات تقوم كلها ، كما هي الحال دائماً ، بتفصيل ما أجمل القرآن وتفريع بياني لما أصل .

(١) توضيحاً لما نختار في تحديد منزلة القرآن الكريم ، مصدراً انشائياً ، من السنة التي هي بيان له وتفصيل لمجمله ، نكتفي بالتذكير بقوله تعالى (النحل ٨٩ : ١٦) " ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء " وقوله ، سبحانه (النحل ١٦ : ٤٤) " وأنزلنا عليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون " ويقول الإمام الشافعي (الأم ٢ : ٢٧١) : " لا يكون الحق معلوماً إلا عن الله نصاً أو دلالة من الله ، فقد جعل الله الحق في كتابه ثم سنة نبيه ، صلى الله عليه وسلم . فليس تنزل بأحد نازلة إلا والكتاب يدل عليها نصاً أو جملة . فان قيل : وما النص والجملة ؟ قيل : النص ما حرم الله وأحل نصاً : حرم الأمهات والجداات والعمات والخالات ، ومن ذكر معهن . وأباح من سواهن . فكان مكثف بالتنزيل في هذا عن الاستدلال فيما نزل فيه مع أشباه له . فان قيل في الجملة قيل ما فرض الله من صلاة وزكاة وحج ، فدل رسول الله ، صلى الله عليه وسلم " كيف الصلاة وعددها ووقتها والعمل فيها ، وكيف الزكاة " وفي أي المال هي ، وفي أي وقت هي ، وحكم قدرها ، وبين كيف الحج والعمل فيه وما يدخل به فيه ، وما يخرج به منه " .

وفي القسم الثالث نتعرض لحالات من صور الانتهاك لحق الخصوصية اضافها
التقدم العلمي في وسائل التجسس والتصنت ونبحث الحكم فيها على معيار المبادئ
العامة والتطبيقات التي جاء بها القرآن الكريم وبينتها السنة .

وفي الخاتمة نستبعد الظروف الاستثنائية ذات الحكم الخاص ، بعد تحديدها ،
لنصل ، في ضوء القرآن والسنة ، الى ما ينبغي أن يفرضه التشريع ، في المجتمع
الاسلامي ، حماية للحق في الخصوصية على نحو لا معدى عنه ولا ترخص فيه .

القسم الاول وفيه فرعان :

الفرع الاول - الايات القرآنية الكريمة في المبادئ العامة .

أولا - لا تبني الأحكام ولا ينظر الى الناس ولا تقتحم حرما تهم بالظن : والايات في
ذلك كثيرة منها ما عابه الله عز وجل على الذين لا يقيمون آراءهم على العلم
ويكتفون في قولها على الظن (الانعام ٦ : ١٤٨) : " هل عندكم من علم
فتخرجوه لنا : ان تبتغون الا الظن وان انتم الا تخرصون " . ويؤكد
الله سبحانه وتعالى ، في أكثر من آية (يونس : ١٠ : ٣٦ ، النجم
٥٣ : ٢٨) التحذير من اتباع الظن اذ يقول : " ان الظن لا يغني من الحق
شيئا " .

ثانيا : ينهى ، جل ذكره ، أن تقتفى أمور الناس بغير علم ، ويبين أن وسائل
الاقتفاء جميعها مسئولقة عن أي انحراف في استعمالها (الاسراء ١٧ : ٣٦) :
" ولا تقف ما ليس لك به علم ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك
كان عنه مسئولا " .

(١)
وقد عني الشراح بتفسير هذه الآية عناية كبيرة فيقول أبو بكر الرازي الجصاص
"أحكام القرآن (٣: ٢٠٣-٢٠٤): "القفو: اتباع الأثر من غير بصيرة ولا علم بما
يصبو إليه ، ومنه القافة . وكانت العرب فيها من يقتاف الأثر ، وفيها من يقتناف
النسب .

وقد كان هذا الاسم موضوعا عندهم لما يخبر به الانسان من غير حقيقة ، يقولون :
تقوف الرجل : اذا قال الباطل . قال جرير : وطال حذارى خيفة البين والنوى .
أو حدوته من كاشح متقوف قال أهل اللغة : أراد بقوله الباطل . قال قتادة ، فسى
قوله تعالى : "ولا تقف ما ليس لك به علم" : لا تقل سمعت ، ولم تسمع ، ولا رأيت ،
ولم تر ، ولا علمت ، ولم تعلم .

وقاقتضى ذلك نهى الانسان عن أن يقول فى أحكام الله ما لا علم له به —
عن جهة الظن والحسبان ، وان لا يقول فى الناس من السوء ما لا يعلم صحته ،

(١) ينظر من هؤلاء الشراح : الطبرى ، تفسير ، الجزء ١٥ : ٦١-٦٢ الذى يرى
ان لا تقف بمعنى "لا تقل" وان اصل "القفو" : "العضه" و"البهت"
أو أن المراد "لازم أحدا بما ليس لك به علم ، الطوس ، امام الشيعة ،
التبيان ٦ : ٤٧٧ : الزمخشري ، الكشاف ٢ : ٤٤٩ ، ابن العربى ، أحكام
القرآن ، القسم الثالث ، القاهرة ١٩٦٨ ، ص ١١٩٩-١٢٠٠ : الطبرس
مجمع البيان ، الجزء السادس ، ص ٢٨٨-٢٨٩ ، فخر الدين الرازى ، مفاتيح
الغيب ، الجزء الخامس ص ٣٩٨-٤٠٠ ، تفسير أبى السعود ، على هامش
تفسير فخر الدين الرازى ، الجزء السادس ص ٤٢٤-٤٢٥ ، تفسير البيضاوى
ص ٣٧٥ ، القرطبي ، أحكام القرآن ، الجزء العاشر ، ص ٢٥٧-٢٦٠ :
ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، المجلد الخامس ، طبع الشعب ، ص
٥٧٢ ، الفيروزابادى ، تنوير المقياس من تفسير ابن عباس ، القاهرة ١٩٦٠ ص
١٧٨ ، اللوسى ، روح المعانى ١٥ : ٦٨-٧٠ الذى يضيف أنه قد استدل
بالإقلى أن العبد يؤاخذ بفعل القلب كالتمصيم على المعصية والادماء
القلبية كالحقد والحسد والعجب وغير ذلك . نعم صرحوا بأن الله
بالمعصية من غير تمصيم لا يؤاخذ به للخبر الصحيح فى ذلك . ثم ان اتباع
الظن يكون كبيرة ويكون صغيرة حسب انواعه واصنافها ، ومنه ما يكون أكبر
الكبائر ، كما لا يخفى ،

ودل على أنه اذا اخبر عن غير علم فهو آثم في خبره ، كذبا كان خبره أو صدقا ،
لانه قائل بغير علم ، وقد نهاه الله عن ذلك . قوله تعالى : ان السمع والبصر
والوؤاد كل اولئك كان عنه مسئولا " فيه بيان أن لله علينا حقا في السمع والبصر
والقؤاد ، والمرء مسئول عما يفعله بهذه الجوارح من الاستماع بما لا يخلل ،
والنظر الى ما لا يجوز ، والارادة لما يقبح .

وقد لاحظ أبو حيان (البحر المحيط ٦ : ٣٦-٣٧) بعد أن أتى بآراء فـى
أنواع من معانى الآية ان الله سبحانه قد " نهى عن اتباع ما لا يكون معلوما .
وهذه قضية كلية تندرج تحتها أنواع " وأن بعضا لشرح قد " حمل على واحد
من تلك الأنواع " .

وقد لخص فخر الدين الرازى هذه الآراء بما ترى أنه يغنى عن تتبع ما جاء
فى سائر المراجع المشار اليها آنفا : " تقف " مأخوذ من قولهم قفوت أثر فلان
اقفولفوا . اذا اتبعت أثره . . فـقوله : " ولا تقف " أى لا تتبع ولا تقف ما لا علم
لك به من قول أو فعل . وحاصله يرجع الى النهى عن الحكم بما لا يكون معلوما .
وهذه قضية كلية يتدرج تحتها انواع كثيرة : وكل واحد من المفسرين حمله على واحد
من تلك الأنواع : وفيه وجوه :

الأول : المراد نهى المشركين عن المذاهب التى كانوا يعتقدونها فى الالهيات
والنبوات بسبب تقليد اسلافهم ، لانه ، تعالى ، نسبهم فى تلك العقائد الى اتباع
الهوى ، فقال : ان هى الا أسماء سميتوها انتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من
سلطان ، ان يتبعون الا الظن وما تهوى الأنفس " . وقال ، فى انكارهم البعث
بل ادراك علمهم فى الآخرة ، بل هم فى شك منها ، بل هم منها عمون " . وحكى
عنهم أنهم قالوا : " ان تظن الا ظنا وما نحن بمستيقنين " . وقال : ومن أضل ممن
اتبع هواه بغير هدى من الله " وقال : " ولا تقولوا لما تصف السنتكم الكذب هذا
حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب " . وقال : " هل عندكم من علم فتخرجوه
لنا ان تتبعون الا الظن " .

والقول الثانى : نقل عن محمد بن الحنفية ان المراد منه النهى عن شهادة الزور

وقال ابن عباس : لا تشهد الا بما رأيته عيناك وسمعته أذناك ووعاه قلبك .
والقول الثالث : المراد منه النهى عن القذف ورمى المحصنين والمحصنات بالاكاذيب
وكانت عادة العرب جارية بذلك يذكرونها فى الهجاء وبيالغون فيه .

والقول الرابع : المراد منه النهى عن الكذب . قال : لا تقل سمعت ولم تسمع ،
ورأيت ولم تر ، وعلمت ولم تعلم .

والقول الخامس : ان القفو هو البهت ، وأصله القفا ، كأنه قول يقال خلفه
وهو فى معنى الغيبة ، وهو ذكر الرجل فى غيبته بما يسؤوه . وفى بعض الأخبار :
من قفا مسلما بما ليس فى حبه الله فى ردغة الخبال .

واعلم أن اللفظ عام " يتناول الكل فلا معنى للتقليد . والله أعلم " .

ثالثا : ينهى الله سبحانه وتعالى عن ظن يقحم صاحبه فى حرمة غيره ويقوده الى
التجسس ليستكشف ما ينبغى أن يحفظ له من أسرار . فىقول عز وجل (الحجرات
٤٩ : ١٢) : " يا أيها الذين امنوا اجتنبوا كثيرا من الظن ان بعض الظن اثم
ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا ، أوجب أحدكم ان ياكل لحم أخيه ميتا
فكرهتموه ، واتقوا الله ان الله تواب رحيم " .

(١)
والمفسرون متفقون على أن "الظن" نوعان ظن مرغوب فيه ، وظن اثم وكلاهما قوامه الشك -

(١) وان دلت شواهد مما جاء لدى بعضهم ، نذكر شيئا منها فيما يلى ، على
بعض الخلاف فى الاهتمام بالتأصيل او الاشتغال بالأنواع دون تخصيص ،
فى الغالب ، بين الشئون الموضوعية والمسائل العلمية ، لما يهمنى هنا
من خصوصات الناس وما حوى الله من أسرارهم وخالص أمورهم : فعلى
حين يقول الطبرى (٢٦ : ٨٥-٨٧) ، " ولا يتبع بعضكم عورة بعض
ولا يبحث عن سرائره . يتغنى بذلك الظهور على عيوبه ، ولكن اقنعوا
بما ظهر لكم من أمره وبه فاحمدوا واذموا ، لا على ما تعلمونه من سرائره " .
يذكر أن " ابن عباس نهى المؤمن أن يتتبع عورات المؤمن " . وعن قتادة
قوله : " هل تدرون ما التجسس والتجسس ؟ هو أن تتبع او تتبغى عيب
أخيك لتطلع على سره " . ويظيل أبو بكر الرازى الجصاص ، أحكام القرآن
(٣ : ٤٠٥-٤٠٩) فى نماذج للظن منها المباح ومنها المحظور وكذلك
يفعل فى أنواع من التجسس ، والطوسى ، التبيان (٩ : ٣٤٧-٣٤٩) بعد

• وان ذا الظن لأنم يزيد على الشك معنى التهمة ويتجاوزها فيما لا يعقبيه

== أن ينقل عن ابن عباس ومجاهد وقتادة النهى عن تتبع "عثرات المؤمن" يذكر أن "للمؤمن حقا على المؤمن ينافي التجسس عن مساوئه وأنه "يجب على المؤمن أن يتجنب ذكره المستور عند الناس بقبيح لان عليهم أن يكذبوه ويردوا عليه ، وان كان صادقا عند الله ، لان الله ستره عن الناس " والزمخشري ، الكشف (٥٦٧ : ٣) يرى أن الذى يميز الظنون التى يجب اجتنابها عما سواها أن كل ما لم تعرف له اشارة صحيحة وسبب ظاهر كان حراما واجب الاجتناب وذلك اذا كان المظنون به ممن شوهد منه السر والصلاح وانست منه الامانة فى الظاهر ، فظن الفساد والخيانة به محرم ، بخلاف من اشتهر بين الناس بتعاطى الريب والمجاهرة بالخبائث . وينتهى الى أن " المراد النهى عن تتبع عورات المسلمين ومعاييبهم والاستكشاف عما ستروه " . وابن حيان ، البحر المحيط ٨ : ١١٤ - ١١٥ جمع كل ما تقدم ، تقريبا ، من أقوال . وينظر ابن العربى ، أحكام القرآن (١٧١٢ : ٤) وسنرى وجهة نظره مع مزيد عند القرطبي بعد قليل ويقول الطبرسى ، مجمع البيان (٢٤٥ : ٩ - ٢٥٢) ، " انما قال : كثيرا من الظن " لأن من جملة ما يجب العمل به ولا يجوز مخالفته ، وانما يكون اثما اذا فعله صاحبه وله الطريق الى العلم بدلا منه ، فهذا ظن محرم لا يجوز فعله ، فاما مالا سبيل الى دفعه بالعلم بدلا منه فليس باثم . . . وقيل : معناه : يجب على المؤمن ان يحسن الظن ولا يسيئه فى شئ يجد له تأويلا جميلا وان كان ظاهره قبيحا . ويقول فى التجسس والنهى عنه : " قيل معناه : لا تتبعوا عيوب المسلمين لتتهكوا العيوب التى سترها اهلها . " ويعرف " انغية " بأنها " ذكر العيوب بظهر الغيب على وجه تمنع الحكمة منه . " فخر الدين الرازى ، مفاتيح الغيب (٥٧٨ : ٧ - ٥٨٠) يرى أن على " الظن " تبني القبائح ، ومنه يظهر العدو المكاشح ، والقائل اذا وقف أموره على اليقين لقلما يتيقن فى أحد عيبا فيلزمه به ، فان الفعل فى الصورة قد يكون قبيحا ، وفى نفس الامر لا يكون كذلك لجواز ان يكون فاعله ساهيا او يكون الرأى مخطئا . وفى النهى عن التجسس يقول : " لما قال : " اجتنبوا كثيرا من الظن " فهم منه أن المعتبر اليقين ، فيقول القائل : انا اكشف فلانا ، يعنى اعلمه يقينا واطلع على عيبه شاهدة ، فأعيب ، فأكون قد اجتنبت الظن ، فقال تعالى ولا تتبعوا الظن ولا تجتهدوا فى طلب اليقين فى معايب الناس . " وينظر البيضاوى ، ص ٦٨٤ - ٦٨٥ الفيروز ابادى ، المقياس من تفسير ابن عباس ، ص ٣٢٣ - ٣٢٤ الذى يذكر سبب نزول الآية ، فيقول : " نزلت هذه الآية فى رجلين من اصحاب النبى ، صلى الله عليه وسلم ، اغتابا صاحبا لهما وهما " سلمان " وظنا " بأسامة " خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم لاسامة ان اعطهما ، فنهاهم الله عن ذلك ! الظن والتجسس والغيبة فقال : يا أيها الذين آمنوا بمحمد عليه السلام والقرآن ! اجتنبوا كثيرا من الظن ما تظنون بأخيك من مدخله ومخرجه " ان بعض الظن " ظن السوء " وما تخفونه " اثم " معصية ، وهو ما ظن رجلان بأسامة بن زيد " ولا تجسسوا ولا تبخثوا عن عيب أخيك " ==

الى اقتحام ما حرم الله من خواص غيره بالتجسس والتطلع الى اسرار قد تكشف عن عورات
اراد الشرع لها الستر ، ثم تتكامل عناصر الخطيئة بالغية غاية الجسامة بانطلاق
لسان الاثم بالغيبة التي يصورها القرآن في صورة تبلغ من البشاعة اكل لحم الاغ ميتا
وقد أشار الى هذه المعاني في الآية حيث بين من " لطائف " الآية أن الله تعالى
ذكر فيها "أمورا ثلاثة مرتبة بيانها هو ان الله تعالى قال "اجتنبوا كثيرا" اي لا
تقولوا في حق المؤمنين ما لم تعلموه فيهم بناء على الظن . ثم اذا سئلتهم عن
المظنون فلا تقولوا : نحن نكشف امورهم لنستيقن بها قبل ذكرها . ثم اذا علمتم
منها شيئا من غير تجسس فلا تقولوه ولا تفشوه عنهم ولا تعييبوا : ففي الاول نهى
عما لم يعلم ثم نهى عن طلب ذلك العلم ، ثم نهى عن ذكر ما علم .

ولا تطلبوا ما ستر الله عليه . . . والقرطبي ، أحكام القرآن (١٦ : ٣٣٠ - ٣٤٠) يأتي
بسبب النزول بتفصيل اطول . وهو يفسر " الظن " في الآية بأنه . . . هو التهمسة
وعنده أن " محل التحذير والنهي انما هو متهمة لاسبب لها يوجبها ، كمن
يتهم بالفاحشة او بشرب الخمر مثلا ولم يظهر عليه ما يقتضى ذلك " وهو يضيف :
" وان شئت قلت : والذي يميز الظنون التي يجب اجتنابها عما سواها ان كل ما لم
تعرف له اشارة صحيحة وسبب ظاهر كان حراما واجب الاجتناب " . ويقول ابو السعود
في تفسير الآية (اشرنا اليه سابقا ٧ : ٧٥٥) ما يكرره الالوسي ، روح المعاني
(٢٦ : ١٤١ - ١٤٢) ، " لا تبحثوا عن عورات المسلمين ومعاييبهم وتستكشفوا عما ستروه :
تفعل من الجس باعتبار ما فيه من معنى الطلب ، كاللمس فانه من يطلب الشيء
يحسنه ويلمسه ، فاريد به ما يلزمه واستعمال الفعل للمبالغة " وينتهي الالوسي الى
ان الذي عليه الجمهور النهي عن تتبع العورات مطلقا وعدده من الكبائر " . والراغب
الاصفهانى في " المفردات في غريب القرآن " ص ٩٣ يقول : " أصل الجس مس
العرق وتعرف نبضه للحكم به على الصحة والسقم ، واخص منه الجس ، فان الجس
تعرف ما يدرك بالجس .

والجس تعرف حال ما من ذلك . ومن لفظ الجس اشتق الجاسوس . " ويقول ص ٣١٧
ان " الظن اسم لما يحصل عن اشارة ، ومتى قويت ادت الى العلم ، ومتى
ضعفت جدا لم يتجاوز حد التوهم " .

الفرع الثاني : آيات في انواع تناولها القرآن بوجه من التخصيص :

أولا : قوله سبحانه وتعالى (الحجرات ٤٩ : ١١) : " يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى ان يكونوا خيرا منهم ، ولا نساء من نساء عسى ان يكن خيرا منهن ، ولا تلمزوا انفسكم ، ولا تتنازروا بالالقباب : بئس الاسم الفسوق بعد الايمان ، ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون " .

وينبغي لنا ان نقدم لشرح معانى الآية بتقدمة فى معنى كلمة " عرض " التى تدل شرعا على ما هو من خصائص الاشخاص الواجب عدم المساس بها دون مقتضى ذلك أن العرض - كما يعرفه ابن الاثير : هو " موضع المدح ، او الذم - من الانسان سواء كان فى نفسه او فى سلفه او من يلزمه امره " او هو " جانبه الذى يصونه من نفسه وحسبه ويحامي عنه ان ينتقص او يثلب = اى يعاب = وسواء فى ذلك ما استتر من خواص امره وما انكشف الا أن يكون ما ظهر منه مخالفا لما امر الله به او نهى ^(٢) ، سبحانه ، عنه فيكون جزاءه فى حدود ما بين الله ورسوله دون ادنى تزيد .

(١) النهاية فى غريب الحديث والاثار ٣ : ٨٠ - ٨١ وهو يأتى بأحاديث منها : " كل المسلم على المسلم حرام : " دمه وماله وعرضه " وحديث ابى ضمضم : اللهم انى تصدقت بعرضى على عبادك " أى على من ذكره بما يرجع عليه عيبه . . . وحديث : " لى الواجد يحل عقوبته وعرضه " اى لصاحب الدين ان يذمه ويصفه بسوء القضاء " .

(٢) يروى القرطبى فى تفسيره (١٦ : ٣٣٥) وابن كثير فى تفسيره (٧ : ٣٦٢ - ٣٦٣) ما رواه ابو داود فى سننه (الجزء الثانى ، طبعة ١٩٨٣ ص ٥٠١ كتاب الحدود باب رجم ماعز) عن أبى هريرة أن النبی ، صلى الله عليه وسلم ، سمع رجلين من اصحابه يقول احدهما لصاحبه ، عن ماعز بعد رجمه : " انظر الى هذا الذى ستر الله عليه فلم تدعه نفسه حتى رجم رجم الكلب ، فسكت عنهما ثم سار ساعة حتى مر بجيفة حمار شائل برجله فقال : اين فلان وفلان ؟ فقالا : نحن ذا يا رسول الله . قال : انزلا فكلا من جيفة هذا الحمار . فقالا : يا نبى الله من يأكل من هذا ؟ فقال : فما نلتما من عرض اخيكما انفا اشد من أكل منه والذى نفسى بيده انه الان لفى انهار الجنة ينغمس فيها " .

والآية تنهى عن محرمات ثلاثة : "السخرية" "واللمز" "والنيز" والسخرية هى نوع من الاستعلاء يتوهمه الساخر فى نفسه بازاء ما يبدو له عيبا فى من يسخر منه . والنهى عن ذلك فى الآية يتضمن التنبيه الى معنى انه لا أحد يسلم تقيا من العيوب ، وأن الساخر قد يكون أكثر عيوباً وخطر ممن يسخر منه وأن الله الذى يعلم ما يستره من عيوب نفسه يحرم عليه ، ذكرا أو انثى ، ان يحتقر غيره بما انكشف من عيوب لا يحسبها الشرع عليه ، او يحاسبه عليها بما يظهره منها .

(١) ويعرف ابو بكر الرازى الجصاص "السخرية هنا بأنها" عيب من لا يستحق أن يعاب ، على وجه الاحتقار له "والطبرى يذكر فى تحديد معنى السخرية التى نهى الله عنها المؤمنين فى هذه الآية عدة آراء منها : سخرية الغنى من الفقير لفقره ، ومنها " نهى من الله من ستر عليه من اهل الايمان ان يسخر ممن كشف فى الدنيا ستره منهم " ولكنه ينتهى الى أن " الصواب من القول فسى ذلك ، عندى ، ان يقال ان الله عم بنهيه المؤمنين ان يسخر بعضهم من بعض جميع معانى السخرية ، فلا يحل لمؤمن ان يسخر من مؤمن لفقره ، ولا لذنوب ركبته ، ولا لغير ذلك " .

• ويقول الالوسى (روح المعانى ٢٦ : ١٣٨ وما بعدها) : " السخر : الهسزوء ، كبا فى القاموس ، وفى الزواجر : النظر الى المسخور منه بعين النقص . وقال القرطبي : السخرية : الاستحقار والاستهانة والتنبيه على العيوب والنقائص بوجه يضحك منه . وقد تكون بالمحاكاة بالفعل والقول او الاشارة او الايماء او الضحك على كلام المسخور منه اذا تخطب فيه او غلط ، او على صنعتته ، او قبح صورته . وقال

(١) أحكام القرآن ٣ : ٤٠٤

(٢) جامع البيان عن تأويل اى القرآن ٢٦ : ٨٣ .

بعض : هو ذكر الشخص بما يكره على وجه مضحك بحضرته . واختير : انه احتقاره
قولا او فعلا بحضرته على الوجه المذكور .

وفى قوله تعالى : " قوم من قوم . . . ولا نساء من نساء " يقول الزمخشري
(٣ : ٥٦٥) : " القوم : الرجال خاصة ، لانهم القوام بأمر النساء — قال تعالى :
الرجال قوامون على النساء " . وهو فى الأصل جمع قائم ، كصوم وزور فى جمع
صائم وزائر ، او تسمية بالمصدر واختصاص القوم بالرجال صريح فى الآية ، وفى
قول زهير : أقوم آل حصن أم نساء ، وتكثير القوم والنساء ويحتمل معنيين : أن يراد
لايسخر بعض المؤمنين والمؤمنات من بعض : وأن تقصد اقالة الشيعاء ، وأن تصير
كل جماعة منه منسوبة عن السخرية . وانما لم يقل رجل من رجل ، ولا امرأة من
امرأة على التوحيد ، اعلاما باقدام غير واحد من رجالهم وغير واحدة من نساءهم
على السخرية ، واستفظاغا للشأن الذى كانوا عليه ، ولأن مشهد الساخر لا يكاد
يخلو ممن يتلهى ويتضحك على قوله ، ولا يأتى ما عليه من النهى والانكار ،

(١) وهناك آراء اخرى قد يفيد عرض بعض نماذج ، فمثلا يذكر الطبرسى
التبيان ٩ : ٢٤٦-٢٤٧ سبب نزول الآية فقال انها نزلت فى " ثابت بن قيس
ابن شماس ، وكان فى أذنه وقر ، وكان اذا دخل المسجد تفسحوا له حتى
يقعد عند النبى فيسمع ما يقول ، فدخل المسجد يوما والناس قد فرغوا من
الصلاة وأخذوا مكانهم ، فجعل يتخطى رقاب الناس ويقول : تفسحوا تفسحوا ،
حتى انتهى الى رجل فقال له : أصبت مجلسا فاجلس ، فجلس خلفه مغضبا
فلما انجلت الظلمة قال : من هذا ؟ قال الرجل : أنا فلان . فقال ثابت :
ابن فلانة ، وذكرنا اما له كان يعير بها فى الجاهلية ، فنكس الرجل رأسه
حيا . فنزلت الآية — عن ابن عباس . "

ويقول فخر الدين الرازى (٧ : ٥٧٥-٥٧٧) فى تبيان " ما ينبغى ان يكون
عليه المؤمن مع المؤمن : " ان المؤمن اما أن يكون حاضرا واما ان يكون
غائبا ، فان كان حاضرا فلا ينبغى ان يسخر منه ، ولا يلتفت اليه بما
ينافى التعظيم . وفى الآية اشارة الى امور ثلاثة مرتبة بعضها دون بعض ،
وهى : السخرية ، واللمز ، والنبز . فالسخرية هى ان لا ينظر الانسان
الى اخيه بعين الاجلال ولا يلتفت اليه ، ويسقطه عن درجته ، وحينئذ
لا يذكر ما فيه من المعاييب ، وهذا كما قال بعض الناس : تراهم اذا ذكر عندهم
عدوهم يقولون : هو دون ان يذكر ، وأقل من أن يلتفت اليه . فقال :
لا تحقروا اخوانكم ولا تستصغروهم . "

فيكون شريك الساخر وتلوه في تحمل الوزر ، وكذلك كل من يطرق سمعه فيستطيعه ويضحك به فيؤدى ذلك ، وأن اوجدوه واحد ، الى تكثر السخرة وانقلاب الواحد جماعة وقوما .

وفي قوله تعالى : " عسى ان يكونوا خيرا منهم " يقول الزمخشري (٣: ٥٦٥) — (٥٦٦) : المعنى ، وجوب ان يعتقد كل احد ان المسخور منه ربما كان عند الله خيرا من الساخر لان الناس لا يطلعون الا على ظواهر الاحوال ، ولا علم لهم بالخفيات ، وانما الذى يزن عند الله خلوص الضمائر وتقوى القلوب ، وعلمهم من ذلك بمعزل ، فينبغى ان لا يجترأ احد على الاستهزاء بمن تقتحمه عينه اذ ارآه رث الحال ، أو ذاعاهة في بدنه ، أو غير لبيق في محادثته ، فلعله اخلص ضميرا ، واتقى قلبا ممن هو على ضد صفته ، فيظلم نفسه بتحقيق من وقره الله ، والاستهانة بما عظمه الله .

وقوله : " ولا تلمزوا انفسكم " يقول في معنى " اللمز " الراغب الاصفهاني : (١) " اللمز : الاغتياب وتتبع المعاب ، ولا تلمزوا انفسكم : اى لا تلمزوا الناس فيلمزونكم فتكونوا في حكم من لمز نفسه " ويقول القرطبي : " اللمز " في اللغة : العيب في السر . قال الجوهري : اللمز : العيب ، وأصله الاشارة بالعين ونحوها ، ولمزه يلزمه ويلمزه . ورجل لماز ولمزة أى عياب . وقال الطبري : اللمز باليد والعين واللسان والاشارة " ويقول الزمخشري : اللمز : الطعن والضرب باللسان " والمعنى : " وخصوا أيها

(١) المفردات في غريب القرآن . سبقت الاشارة اليه ، ص ٤٥٤ . ويقول ابن الاثير : النهاية ٦٦: ٤ : " اللمز : العيب والوقوع في الناس . وقيل : هو العيب في الوجه ، والهمز : العيب بالغيب " .

(٢) أحكام القرآن ١٦٦: ٨ ، ٣٢٧: ١٦ وهو يضيف : " وفي قوله : أنفسكم تنبيهه على أن العاقل لا يعيب نفسه ، فلا ينبغى ان يعيب غيره لانه كنفسه : قال صلى الله عليه وسلم : المؤمنون كجسد واحد ان اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى " .

(٣) الكشف ٥٦٦: ٣ .

(١) المؤمنون انفسكم بالانتها عن عيبها والطعن فيها .

وفي قوله تعالى : " ولا تنابزوا بالالقاب " يقول البيضاوي (٢) : ولا يدع بعضهم بعضا بلقب السوء ، فان النبز مختص بلقب السوء . ويقول الزمخشري التنابز بالالقاب : التداعى بها تفاعل من نبره . وبنو فلان يتنابزون ويتنازبون ، ويقال : النبز والنبز : لقب السوء . والتلقب المنهى عنه هو ما يتداخل المدعوه به كراهة لكونه تقصيرا به ، وذلما له ، وشينا ، فأما يحبه ، مما يزينه وينوه به فلا بأس به .

(٤) ويزيد الطبرسي المعنى ايضا كما فيقول : " ولا تنابزوا بالالقاب ، جمع اللقب ، وهو اسم غير الذى سمي به الانسان . وقيل : هو كل اسم لم يوضع له واذا دعى به يكرهه ، فأما اذا كان لا يكرهه فلا بأس به ، مثل : " الفقيه " والقاضى . وقيل : هو قول الرجل للرجل : يا كافر ، يا فاسق ، يا منافق (عن قتادة وعكرمة) وقيل : كان اليهودى والنصرانى يسلم فيقال له ، بعد ذلك يا يهودى او يا نصرانى ، فنهوا عن ذلك (عن الحسن) قيل : هو أن يعمل شيئا من القبيح ثم يتوب عنه فيعير بما سلف منه . (عن ابن عباس) .

وفي قوله تعالى : " بئس الاسم الفسوق بعد الايمان " يقول الطبرى (٨٥ : ٢٦) :

(١) يتفق الزمخشري مع الجصاص (احكام القرآن ٣ : ٤٠٤) فى تقرير أن النهى انما هو " عيب من لا يستحق وليس بمعيب " فان من كان معيبا فاجرا فعيبه بما فيه جائز ، وروى أنه لما مات الحجاج قال الحسن : اللهم انت امتى فاقطع عنا سنته ، فانه اتانا اخيفش اعيمش يمد بيد قصيرة البنان ، والله ما عرق فيها عنان فى سبيل الله ، يرجل جمته ، ويخطر فى مشيته ، ويصعد المنبر فيهذر حتى تغوته الصلاة لا من الله يتقى ، ولا من الناس يستحى ، فوqe الله ، وتحتة مائة الف او يزيدون ، لا يقول قائل : الصلاة ايها الرجل ، ثم قال الحسن : " هيهات والله ! حال دون ذلك السيف والسوط " .

(٢) تفسير ، ص ٦٨٥ .

(٣) الكشاف ٣ : ٥٦٦ .

(٤) مجمع البيان ٩ : ٢٤٩ .

من فعل ما نهينا عنه ، وتقدم على معصيتنا بعد ايمانه فسخر من المؤمنين ولمـز أخاه المؤمن ونبهه بالالقاب فهو فاسق " واذن : فلا تفعلوا ذلك فتستحقوا ، ان فعلتموه ان تسموا فساقا . " ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون " : ومن لم يتب عن اللز والتناز بالالقاب ويرجع الى طاعة الله ، سبحانه وتعالى ، فأولئك هم الذين يضعون العصيان موضع الطاعة ويعرضون انفسهم لعقاب الله بركوبهم ما نهاهم عنه .

ثانيا : غض البصر حتى لا يتفحص عورات الناس والاحتياط لعوراته بحفظها : يقول الله جل شأنه (النور ٢٤ : ٣٠-٣١) : " قل للمؤمنين يغضوا من ابصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم " ، ان الله خبير بما يصنعون . وقل للمؤمنات يغضضن من ابصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن الا ما ظهر منها " — الى قوله تعالى : " وتولوا الى الله جميعا ايها المؤمنون لعلكم تفلحون " .

(١) ويقول الطبرى شارحا : " قل للمؤمنين بالله وبك يا محمد " يغضوا من ابصارهم " يقول : يكفوا من نظرهم الى ما يشبهون النظر اليه مما قد نهاهم الله عن النظر اليه " ويحفظوا فروجهم " أن يراها ما لا يحل له رؤيتها بلبس ما يسترها عن ابصارها ، " ذلك أزكى لهم " يقول : فان غضها من النظر عما لا يحل النظر اليه ، وحفظ الفرج ان يظهر لا بصر الناظرين اظهر لهم عند الله وأفضل " ان الله خبير بما يصنعون " يقول : ان الله ذو خبرة بما تصنعون أيها الناس فيما امركم به من غض ابصاركم عما امركم بالغض عنه ، وحفظ فروجكم عن اظهارها لمن نهاكم عن اظهارها له " .

" وقل يا محمد للمؤمنات من أمتك يغضضن من ابصارهن " عما يكره الله النظر اليه مما نهاكم عن النظر اليه " ويحفظن فروجهن يقول ويحفظن فروجهن عن أن يراها من لا يحل له رؤيتها بلبس ما يسترها عن ابصارهم وقوله " ويبدين زينتهن " يقول تعالى ذكره : ولا تظهر للناس الذين ليسوا لهم بمحرم زينتهن .

(١) جامع البيان عن تأويل آى القرآن ، الجزء الثامن عشر ، طبع الحلبي ، القاهرة ١٩٦٨ ص ١١٦ وما بعدها .

(١) ويقول الزمخشري: "من" للتبعية . والمراد غض البصر عما يحرم والاقتصار به على ما يحل . فان قلت : كيف دخلت في غض البصر دون حفظ الفروج . قلت: دلالة على أن امر النظر اوسع واما امر الفرج فمضيقة ، وكفاك فرقاً أن أبيح النظر الا ما استثنى منه وحظر الجماع الا ما استثنى منه . ويجوز ان يراد ، مع حفظها عن الافضاء الى ما لا يحل ، حفظها من الابداء . "

(٢) وأما فخر الدين الرازي فيقول : "اعلم انه سبحانه أمر الرجال بغض البصر وحفظ الفرج وأمر النساء بمثل ما أمر به الرجال ، وزاد فيهن ان لا يبدن زينتهن الا لأقوام مخصوصين والمراد غض البصر عما يحرم والاقتصار به على ما يحل . "

ثالثاً : حرمة بيوت السكن ومنع دخولها بغير استئذان .

يقول الله جل ثناؤه (النور ٢٤: ٢٧-٢٩) : "يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها . ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون : فان لم تجدوا فيها أحدا فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم : وان قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو اذكي لكم ، والله بما تعملون عليم . ليس عليكم جناح ان تدخلوا بيوتا غير مسكونة فيها متاع لكم ، والله يعلم ما تبدون وما تكتمون " . ويقول سبحانه (النور ٢٤: ٥٨-٥٩) : " يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت ايمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ، ثلاث مرات : من قبل صلاة الفجر ، وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ، ومن بعد صلاة العشاء : ثلاث عورات لكم ، ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن ، طوافون عليكم بعضكم على بعض . كذلك يبين الله لكم الآيات ، والله عليم حكيم . واذا بلغ الاطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم ، كذلك يبين الله لكم آياته والله عليم حكيم . "

(١) الكشف ٣: ٦٠-٦١ .

(٢) مفاتيح الغيب ٦: ٢٥٩ وما بعدها .

تبين هذه الآيات امورا ثلاثة :

أولها — الاستئذان قبل دخول البيوت المسكونة .
وثانيها — انه لا حاجة الى استئذان في دخول المحال العامة المفتوحة للجمهور
وفيها مصالحهم .

وثالثها — الاستئذان الداخلي في الحجرات داخل المنازل .
وفي الأمر الاول تتطلب الآية الاستئناس و "السلام" والاذن بالدخول . وتتيح
لمن في المنزل ألا يأذن ان كان لديه ما يمنعه من استقبال الزائرين في الدخول .

وقد اختلف المفسرون حول بعض الالفاظ المستعملة في الآية برغم وضوح مضمونها
وضوحا يجعلنا نكتفي بنماذج لاشهر المفسرين في الحاشية هنا .

-
- (١) ابن الاثير ، النهاية ١ : ١٧ "استأنست أى استعلمت " ويقول الفراء " ، معانى
القرآن ٢ : ٢٤٩ " الاستئناس في كلام العرب : اذهب فاستأنس هل ترى
احدا ، فيكون المعنى : انظر من في الدار " .
- (٢) الطبرى ١٨ : ١٠٩ - ١١٣ ينقل عن ابن عباس ان الاستئناس هو الاستئذان
وقال آخرون : الاستئناس التنحنح . . والصواب عند الطبرى ان الاستئناس :
الاستفعال من الانس ، وهو أن يستأذن اهل البيت في الدخول عليهم
مخبرا بذلك من فيه ، وهل فيه أحد ، وليؤذنه انه داخل عليهم فليأمنس
الى اذنه له في ذلك ، ويأمنسوا الى استئذانه اياهم " . ويضيف ابن
العربى (أحكام ٣ : ١٣٤٧) روايق ابن قتيبة ان معنى "حتى تستأنسوا"
"حتى تعلموا أقيها ما تستأذنون عليه أم لا" وينقل (ص ١٣٤٩) عن علماء
المالكية " ان وقعت العين على العين فالسلام قد تعين . ولا تعد رؤيتك
له اذنا لك في دخولك عليه ، فاذا قضيت حق السلام لانك الموارد حينئذ
تقول : أدخل ؟ فان اذن لك فادخل ، والا رجعت " ويقول (ص ١٣٥ -
١٣٥١) : " فان لم تجدوا فيها احد يأذن لكم فلا تدخلوا حتى تجدوا
اذنا . وسواء أكان الباب مغلقا او مفتوحا ، لان الشرع قد أغلقه بالتحريم
للدخول حتى يفتح الاذن من ربه ، بل يجب عليه أن يأتى الباب ، ويحاول
الاذن على صفة لا يطلع منه على البيت لا فى اقباله ولا فى انقلابه ، فقد
روى علماءنا عن عمر بن الخطاب انه قال : من ملأ عينيه من قاعة بيت فقد فسق " .
ويقول الزمخشري (الكشاف : ٣ : ٥٨ - ٦٠) : " تستأنسوا " فيه وجهان :
احدهما انه من الاستئناس من الظاهر الذى هو خلاف الاستيحاش ، لان الذى

== يطرق باب غيره لا يدري أيؤذن له أم لا ، فهو كالمستوحش من خفاء الحال عليه ، فاذا اذن له استأنس ، فالمعنى : حتى يؤذن لكم ، كقولهم : لا تدخلوا بيوت النبي الا أن يؤذن لكم ، وهذا من باب الكناية والأرداف ، لأن هذا النوع من الاستئناس يردف الاذن ، فوضع موضع الاذن . والثاني : أن يكون من الاستئناس الذي هو الاستعلام والاستكشاف ، استفعال من انس الشيء ، اذا أبصره ظاهرا مكشوفاً ، والمعنى : حتى تستعلموا وتستكشفوا الحال ، هل يراد دخولكم أم لا . . . ويجوز يكون من الانس ، وهو ان يتعرف هل ثمة انسان . . . "ذلكم" الاستئذان والتسليم "خير لكم" من تحية الجاهلية والدمور ، وهو الدخول بغير اذن ، واشتقاقه من الدمار وهو الهلاك ، كأن صاحبه دامر لعظم ما ارتكب ، وفي الحديث "من سبقت عينه استئذانه فقد دمر" . . . لعلمكم تذكرون أى : أنزل عليكم ، أو قيل لكم هذا ارادة أن تذكروا . تتعظوا وتعملوا بما أمرتم به "فان لم تجدوا فيها أحداً" من الآذنين "فلا تدخلوها واصبروا حتى تجدوا من يأذن لكم . ويحتمل ، فان لم تجدوا فيها أحداً من أهلها ولكم فيها حاجة فلا تدخلوها الا باذن أهلها . وذلك ان الاستئذان لم يشرع لئلا يطلع الدامر على عورة ، ولا تسبق عينه الى ما لا يحل النظر اليه فقط ، وانما شرع لئلا يوقف على الاحوال التي يطويها الناس في العادة عن غيرهم ويتحفظون من اطلاع احد عليها ، ولأنه تصرف في ملك غيرك فلا بد ان يكون برضا والا اشبه الغصب والتغلب "فارجعوا" اى لا تلحوا في اطلاق الاذن ولا تلحوا في تسهيل الحجاب ولا تقفوا على الابواب منتظرين ، لأن هذا مما يجلب الكراهة ويقدم في قلوب الناس خصوصاً اذا كانوا ذوي مروءة ومراخين بالآداب الحسنة . واذا نهى عن ذلك لادائته الى الكراهة وجب الانتهاء عن كل ما يؤذى اليها من قرع الباب بعنف والتصيح بصاحب الدار وغير ذلك مما يدخل في عادات من لم يتهدب من اكثر الناس . . . فان قلت : هل يصح ان يكون المعنى : وان لم يؤذن لكم وامرتم بالرجوع فامثلوا ولا تدخلوا مع كراهتهم . قلت : بعد أن جزم النهى عن الدخول مع فقد الاذن وحده من أهل الدار ، حاضرين وغائبين ، لم تبق شبهة في كونها منهية عنه مع انضمام الامر بالرجوع الى فقد الاذن . فان قلت : فان عرض امر في دار من حريق أو هجوم سارق أو ظهور منكر يجب انكاره . قلت : ذلك مستثنى بالدليل . أى الرجوع اطيب لكم واطهر ، لما فيه من سلامة الصدور والبعد عن الريبة ، او انفع : انمى خيراً . ثم اوعد المخاطبين بذلك بأنه عالم بما يأتون وما يذرون مما خوطبوا به فموف جزاءه عليه .

(١)
وأما عن البيوت غير المسكونة التي فيها متاع للناس فيقول الفراء : إنها البيوت التي
تتخذ للمسافرين الخانات واشباهها . ويفسر " فيها متاع لكم " أى منافع لكم تنتفعون
بها وتستظلون بها من الحر والبرد والفندق مثل الخان . وقد سمع اعرابيا من
قضاة يقول : فنتق (والكلمتان في القاموس المحيط ولسان العرب) ويقول الطبري :
" ليس عليكم ايها الناس اثم وخرج ان تدخلوا بيوتا لا ساكن بها بغير استئذان
ثم اختلفوا في ذلك : اى البيوت عنى ؟ فقال بعضهم : عنى بها الخانات والبيوت
المبنية بالطرق التي ليس بها سكان معروفون ، وانما بنيت لمارة الطريق والسابلية
ليأووا اليها ويؤووا اليها امتعتهم . وقال آخرون : هى بيوت مكة . وقال آخرون :
البيوت الخربة والمتاع الذى قال الله فيها : لكم قضاء الحاجة من الخلاء والبول .
وقال آخرون : بل عنى بذلك بيوت التجار التي فيها امتعة الناس . " ومثل ذلك
الزمخشري .

(٣)
ويقول فخر الدين الرازى : " فى البيوت غير المسكونة هذه ان المانع من
الدخول الا باذن زائل عنها ويذكر قول من قال انها الحانات والرباطات وحوانيت
البياعين والمتاع والمنفعة كالاستئذان من الحر والبرد واىوا الرجال والسلع والشراء
والبيع . والأسواق وما الى ذلك اذ يرى ان الاولى ان يقال ان كل ذلك يدخل
تحت الآية . وهو يرى العلة فى ذلك انها اذا كانت كذلك فهى مأذون بدخولها
من جهة العرف . ومثله فى ذلك الطبرسى والبيضاوى .

(٤)
والقرطبي يرى ان الله أباح بهذه الآية كل بيت لا يسكنه أحد ، لان العلة
فى الاستئذان انما هى لاجل خوف الكشفة على الحرمات فاذا زالت العلة زال الحكم
ويأتى بقول الشعبي فى الحوانيت ان اصحابها جاءوا ببيوعهم فجعلوها فيها
وقالوا للناس : هلم .

(١) معانى القرآن ٢: ٢٤٩ .

(٢) جامع البيان ١٨: ١١٣-١١٦ . وينظر الزمخشري ٣: ٦٠ .

(٣) مفاتيح الغيب ٦: ٢٥٨-٢٥٩ ، الطبرسى ٧: ٢٥٥ ، البيضاوى ،
ص ٤٦٧ .

(٤) أحكام القرآن ١٢: ٢٢١ .

والنوع الثالث في دخول البيوت أو الحجرات الداخلية فيها ووجوب الاذن فيه ، فقد فرق القرآن بين من يعيشون مع الاسرة من الاطفال والخدم فخصهم بحكم وقته بزمان معين يعتاد الناس فيه ان يركنوا الى شئ من الراحة متخفين مما يتجملون به بعضهم بازاء بعض سماه القرآن " ثلاث عورات " أى ثلاث حالات يخلو فيهمسا الانسان على وضع لا يريد لاحد ان يراه عليه . والزمن المعين الذى يجب فيه على هؤلاء الاستئذان هو " من قبل صلاة الفجر " و " حين تضعون ثيابكم من الظهيرة " و " من بعد صلاة العشاء " وكما يقول الزمخشري (٣ : ٧٤) ثلاث مرات فى اليوم والليلة قبل صلاة الفجر : وقت القيام من المضاجع وطرح ما ينام فيه من الثياب ولبس ثياب اليقظة ، وبالظهيرة لانها وقت وضع الثياب للقائلة ، وبعد صلاة العشاء لانه وقت التجرد من ثياب اليقظة والالتحاف بثياب النوم . . . وسمى كل واحدة من هذه الاحوال عورة لان الناس يختل تسترهم وتحفظهم فيها ، والعورة : الخلل .

غير أن الاطفال اذا بلغوا السن التى يخرجون فيها من الطفولة رجلا ونساء فانهم يدخلون فى ظل القواعد العامة التى تقتضى الاذن فى جميع الاوقات قبل دخول اماكن التى يكون فيها الناس .

وفى تفسير قوله تعالى : " ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن طوافون عليكم بعضكم على بعض " يرد فخر الدين الرازى (٦ : ٣٠٦) على عدة اسئلة منها : ايقضى قوله : " ليس عليكم ولا عليه جناح " الاباحة على كل حال ؟ فيجيب ! أن ذلك هو انما فى الصغار خاصة فباح لهم الدخول للخدمة بغير اذن فى الاوقات الثلاثة ، ومباح لنا تمكينهم من ذلك والدخول عليهم أيضا . " فهـل يقتضى ذلك اباحة كشف العورة لهم ؟ يجيب : " لا ، وانما اباح الله تعالى ذلك من حيث كانت العادة ان لا تكشف العورة فى غير تلك الاوقات ، فمتى كشفت المرأة عورتها مع ظن دخول الخدم اليها فذلك يحرم عليها ، فان كان الخادم ممن يتناوله التكليف فيحرم عليه الدخول ايضا اذا ظن ان هناك كشف عورة " .

ويقول ابن العربي (٣ : ١٣٨٧) فى قوله تعالى : " طوافون عليكم " : أى — مترددون عليكم فى الخدمة وما لا غنى بكم عنه منهم ، فسقط الحرج عن ذلك

وزال المانع " . وفى قوله سبحانه " بعضكم على بعض " : يريد بعضكم من بعض فى المخالطة والملابسة ، فلذلك سقط الاستئذان لهم عليكم . ولكم عليهم ، كما ارتفع الجناح بينكم وبينهم منهم لكم ومنكم لهم .

ويروى ابن كثير (٦ : ٨٩) عن ابن عباس انه قال ان الشيطان غلب الناس على ثلاث ايات فلم يعملوا بهن : يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت ايمانكم والذين لم يبلغوا الحلم - الى آخر الآية : و " اذا حضر القسمة أولو القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه و " ان اكرمكم عند الله اتقاكم .

رابعا : حماية حرمة الانسان ان تنتهك بالادعاء كما حيت ان تنتهك بالاقحام : يقول الله عز وجل (النور ٢٤ : ٤-٥) ثم ١١-٢١ ، ٢٣-٢٥) : " والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة . ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا ، وأولئك هم الفاسقون ، الا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فان الله غفور رحيم " .

" ان الذين جاءوا بالافك عصبة منكم ، لا تحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم ، لكل امرئ منهم ما اكتسب من الاثم ، والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم . لولا ان سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بانفسهم خيرا وقالوا : هذا افك مبين .

لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء : فاذا لم يأتوا بالشهداء فاولئك عند الله هم الكاذبون ولولا فضل الله عليكم ورحمته فى الدنيا والآخرة مسكم فى ما افضتم فيه عذاب عظيم " .

ان تلقونه بالسننكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم " وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم " . ولولا ان سمعتمون قلتم : ما يكون لنا ان نتكلم بهذا ، سبحانه ، هذا بهتان عظيم . يعظكم الله ان تعودوا لمثله أبدا ان كنتم مؤمنين . ويبين الله لكم الايات والله عليم حكيم .

ان الذين يحبون ان تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب اليم في الدنيا والآخرة ، والله يعلم وانتم لا تعلمون . ولولا فضل الله عليكم ورحمته وان الله رؤوف رحيم .

يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ، ومن يتبع خطوات الشيطان فانه يأمر بالفحشاء والمنكر ، ولولا فضل الله عليكم ورحمته مازكى منكم من أحد ابدا ، ولكن الله يزكى من يشاء ، والله سميع عليم

" ان الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم ، يوم تشهد عليهم السنتهم وايديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون ، يومئذ يوفيههم الله دينهم الحق ويعلمون ان الله هو الحق المبين .

والأحكام التي جاءت بها الآيات واضحة نكتفى بتلخيص العناصر الجوهرية التي تهم البحث الذي نحن بسبيل اتمامه :

١- رمى المحصنات والمحصنين ، أى غير المجاهرين بالفسق فيما يقذفون به ، وذلك باتهامهم بالزنا ، يستلزم من الرامى اثبات ما زعم بالشهاد اربعة شهود موصفين بصفات خاصة ترفع قيمة شهادتهم الى مستـوى حكم تصدره محكمة مختصة بصحة ما قال القاذف على نحو لا يقبل اللبس او أن يناله شك .

٢- ان لم يتأتى للقاذف هذا الاثبات فهو اذن مغتر يستحق ان يناله عقاب متعدد الوجوه ، فهو يضرب ثمانين جلدة ، ويوصف بأنه فاسق ، وهو من ثم يفقد ولاية الشهادة ، أى ولاية انفاذ كلامه فى حق من الحقوق التي يعلمها او يشهد بها هذا بالا ان يتوب ويصح خطيئته بالاعتراف بكذبه ، واذن فقد تقبل شهادته على خلاف فى ذلك القبول بسين المذاهب وخاصة المذهب الحنفى الذى يرى أنه يفقد الحق فى قبول شهادته ابد الدهر ، فهو غير حقيق ان يصدقه فى قول ابدا .

٣- يؤدب القرآن المؤمن به ان يلتزم ، فى كل زعم غير مؤكد بالاربعة الشهود ، ان يظن بالمقذوف ما يظنه المؤمن الصالح بنفسه فـيـد افتراء القاذف على أنه افك واضح وفى هذا المعنى يقول الزمخشري (٣: ٥٣-٥٤) : ان القرآن قد صرح بلفظ الايمان دلالة على أن الاشتراك فيه مقتضى ان لا يصدق مؤمن على أخيه ولا مؤمنة على اختها قول غائب ولا طاعن . وفيه تنبيه على أن حق المؤمن اذا سمع قاله فى أخيه ان يبنى الامر فيها على الظن ، لا على الشك ، وأن يقول بملء فيه بناء على ظنه بالمؤمن الخير : هذا افك مبين . هكذا بلفظ المصريح ببراءة ساحته كما يقول المستيقن المطلع على حقيقة الحال . وهذا من الادب الحسن الذى قل القائم به والحافظ له .

٤- يبين القرآن الكريم ان تتبع عورات الناس وتلقف التهم التى تتناولها اللسنة طعنا فى أعراضهم انما هو اشاعة للفاحشة فى المجتمع حقيق ان ينـال المرجعين به عذاب اليم فى الدنيا والآخرة .

ويروى فخر الدين الرازى (٦ : ٢٤٦) فى تفسيره للآية ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " انى لأعرف قوما يضربون صدورهم ضرباً يسمعه اهل النار ، وهم الهمازون للمازون الذين يلتمسون عـورات المسلمين ويهتكون مستورهم ويشيعون فيهم من الفواحش ما ليس فيهم " .

٥- ويكرر الله عز وجل ، التأكيد ان تتبع العورات واشاعة اقوال السوء فى أعراض الناس انما هو من طرق الشيطان وجائله التى يريد بها الفساد للناس وينهى الذين آمنوا بالقرآن ونظمه وسنة رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، ان يسلكوا مسالك الشيطان ، ويذكروهم انه لولا فضل الله ، تعالى ، عليهم وتزكيتهم لهم لافسد عليهم السائرون فى موكب الشيطان وبين أقدامه مجتمعهم الصالح .

هذه المبادئ العامة فى القرآن وان كان بعضها ، كما تقدم ، اكثر عمومية من بعض ليست كل ما فى القرآن فى هذا الشأن ، اذ أن هناك آيات اخرى تعالج حالات استثنائية كأن يظهر فى المجتمع عصابة من مروجى الاشاعات الكاذبة

الطاغين في اعراض الناس العابثين بالعفاف من النساء مثل ما جاء في سورة الاحزاب (٣٣: ٥٩-٦٢) وللدولة ، عند الاقتضاء ، وبعد التحذير ، ان تصل في الحزم معهم الى غاية المدى . وفي هذا يقول الله تعالى :

" لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لتغريننهم ثم لا يجاورونك فيها الا قليلا ، ملعونين اينما تقفوا اخذوا وقتلوا تقتبلا . "

القسم الثاني

أحاديث النبي ، عليه الصلاة والسلام ، في تطبيق ما تقدم من مبادئ قرآنية :

١- نهى الحاكم عن التجسس :

روى أبو داود في سننه (الجزء الثاني ، طبع الحلبي ١٩٨٣ ، ص ٦٢٢) كتاب الأدب ، باب النهي عن التجسس ، " عن معاوية ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقول : " انك ان اتبع عورات الناس أفسدتهم " أو كدت أن تفسدهم " . فقال أبو داود : كلمة سمعها معاوية من رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فنفعه الله تعالى بها . "

وروى ، في المكان نفسه ، عن المقدام بن معد يكرب وأبي امامة ،

(١) روى مسلم باب استحقاق الوالي الفاش لرعيته النار (صحيح مسلم بشرح النوري ، طبع الشعب ١ : ٣٤٩-٣٥٠) ان رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قال : " ما من عبد يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته الا حرم الله عليه الجنة " وفي رواية اخرى : " ما من أمير يلى أمر المسلمين ثم لا يجهد لهم وينصح الا لم يدخل معهم الجنة " . والنصح في الحديث يعنى الخلوص واخلاص النية (ابن الاثير ٤ : ١٤٨) .

عن النبی ﷺ ، قال : ان الامیر اذا ابتغى
الریبة فی الناس أفسدهم ^(١) .

(١) هناك تطبیق حقیق بالذكر ، فی ملابساته ، لامیر المؤمنین عمر بن الخطاب . ذلك أن النبی صلی الله علیه وسلم ، كما روى البخاری ، كتاب الاستئذان ، باب لا تترك النار فی البيت عند النوم (٨ : ٨٠ - ٨١) قال عندما حدث بشأن اهل بیت احترق علیهم فی اللیل : ان هذه النار انما هی عدولکم فاذا نمت فاطفئوها عنکم ، وفي رواية اخرى " اطفئوا المصابیح فان الفویسقة ربما جرت النار فأحرقت أهل البيت " .

ویروی الطبری فی تاریخه (طبعة ١٩٧٠ الجزء الرابع ص ٢٠٥) عن بکر بن عبد الله المزنی ، قال : " جاء عمر بن الخطاب الی باب عبد الرحمن بن عوف فضربه ، فجاءت المرأة ففتحته ثم قالت لــــه : لا تدخل حتی ادخل البيت وأجلس مجلس . فلم یدخل حتی جلس . ثم قالت : ادخل ، فدخل . ثم قال : هل من شیء ؟ فأتت بطعام فأكل - وعبد الرحمن قائم یصلی ، فقال له : تجوز ایها الرجل . فسلم عبد الرحمن حیثئذ ثم اقبل علیه فقال : ماجاء بك فی هذه الساعة یا أمیر المؤمنین ؟ قال رفقة نزلت فی ناحية السوق خشیت علیهم سراق المدينة ، فانطلق لنخرسهم . فانطلقا ، فأتیا السوق ، فقعدا علی نشر من الارض يتحدثان ، فرفع لهما مصباح ، فقال عمر : " ألم أنه عن المصابیح بعد النوم فانطلقا فاذا هم قوم علی شراب لــــهم ، فقال : انطلق فقد عرفته . فلما أصبح ارسل الیه فقال : یا فلان ، كنت وأصحابك البارحة علی شراب .

قال وما علمك یا أمیر المؤمنین ؟ قال : شیء شهدته . فقال : اولم ينهك الله عن التجسس . قال : فتجاوز عنه . قال بکر بن عبد الله المزنی : وانما نهى عمر عن المصابیح لان الفأرة تأخذ الفتيلة فترمي بها فی سقف البيت فیحترق ، وكان اذا ذاك سقف البيت من الجريد .

٢- حرمة المراسلات والكتب ، أصل عام : واستثناء في امور الحرب :

في سنن ابي داود ، كتاب الصلاة باب الدعاء (١ : ٣٧٣-٣٧٤) عن ابن عباس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من نظر في كتاب أخيه بغير اذنه فانما ينظر في النار " .

وقد شرح ابن الاثير (النهاية في شرح غريب الحديث والاثار ٤ : ٧) هذه الرواية للحديث فقال : هذا تمثيل ، أى كما يحذر التماس فليحذر هذا الصنيع . وقيل : معناه : فكأنما ينظر الى ما يوجب عليه النار . ويحتمل انه اراد عقوبة البصر لأن الجناية منه ، كما يعاقب السمع اذا استمع الى حديث قوم وهم له كارهون . وهذا الحديث محمول على الكتاب الذى فيه سر وأمانة يكره صاحبه ان يطلع عليه . وقيل : هو عام في كل كتاب " .

وقد روى الامام الشافعى (الام ٤ : ١٦٦-١٦٧ أحكام القرآن ٢ : ٤٦ - ٤٩) والبخارى (كتاب الاستئذان ، باب من نظر في كتاب من يحذر على المسلمين ليستبين امره ٨ : ٧١-٧٢) ومسلم (باب من فضائل حاطب بن ابي بلتعنة وأهل بدر رضى الله عنهم ٥ : ٣٦٣-٣٦٥) حديثا عن النسي ، صلى الله عليه وسلم ، شرحه الامام الحسين بن مسعود البغوى على النحو الآتى :

(١) جاء معنى هذا الحديث بروايات اخرى ، منها ما جاء في جامع الاحاديث الصغير وزوائده والجامع الكبير للسيوطى (القاهرة ١٩٨٤ ، الجزء السادس ، ص ١٠٦ برقم ٢٠٢٩٤ : " من اطلع في كتاب أخيه بغير امره فكأنما اطلع في النار " . وهو كذلك فى الجامع الصغير فى احاديث البشير النذير للسيوطى ٢ : ٥٧٤ برقم ٨٤٦٨ من اطلع فى كتاب أخيه بغير امره كأنما اطلع فى النار " عن الطبرانى فى الكبير ، عن عبد الله ابن عباس : حديث حسن " .

(٢) شرح السنة ، طبع بيروت ١٩٨٣ ، الجزء الحادى عشر ، ص ٧٢ وما بعدها .

" عن الشافعى . . عن عبد الله بن أبى رافع ، قال : سمعت عليا يقول :
بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنا والزبير والمقداد ، فقال :
انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ (موضع بين مكة والمدينة) فان بها ظعينة
معها كتاب (فخذوه منها) فخرجنا تعادى بنا خيلنا فاذا نحن بظعينة
فقلنا : اخرجى الكتاب . فقالت : مامعى كتاب . فقلنا لها : لتخرجن الكتاب
او لتلقين الثياب . فأخرجته من عقاصها (شعرها المصفور) جمع عقيصة)
فأتينا به رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فاذا فيه : من حاطب
ابن أبى بلتعقالى ناس من المشركين ممن بمكة ، يخبر ببعض امر النبی ، صلى
الله عليه وسلم ، فقال : ما هذا يا حاطب ، فقال : لاتعجل على ،
انى كنت امرأ ملصقا (اى حليفا) فى قريش ، ولم اكن من أنفسها ، وكان
من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون بها قراباتهم ، ولم يكن لى
بمكة قرابة ، فأحببت اذا فاتنى ذلك ان اتخذ عندهم يدا ، والله
ما فعلته شكا فى دينى ، ولا رضا بالكفر بعد الاسلام . فقال رسول
الله صلى الله عليه وسلم : انه قد صدق . فقال عمر : يا رسول الله ،
دعكنى اضرب عنق هذا المنافق . فقال النبی ، صلى الله عليه وسلم :
انه قد شهد بدرا وما يدريك : لعل الله اطلع على اهل بدر فقال :
اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم . ونزلت : يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى
وعدوكم اولياء تلقون اليهم بالمودة (سورة الممتحنة ٦٠ : ١) .

قال الامام البغوى : " فى الحديث دليل على أنه يجوز النظر فى كتاب
الغير بغير اذنه ، وان كان سرا اذا كان فيه ريبة وضرر يلحق الغير .

أما ما روى عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال :
" من نظر فى كتاب اخيه بغير اذنه فانما ينظر فى النار " فهو فى الكتاب
الذى فيه أمانة او سر بين الكاتب والمكتوب اليه لا ريبة فيه ولا ضرر بأحد
من أهل الاسلام .

(١) زيادة فى " مسلم " وفى البخارى " فان بها امرأة من المشركين
معها صحيفة " .

أما كتب العلم فقد قيل : يجوز النظر فيه بغير إذن صاحبه ، لأن العلم لا يحل منعه ولا يجوز كتمانها . وقيل : لا يجوز ، لظاهر الحديث ولأن صاحب الشيء أولى بمنفعة ملكه . وإنما يأثم بكتمان العلم الذى سئل عنه ، فأما منع الكتاب عن غيره فلا اثم فيه . وقوله : " فانما ينظر فى النار " . قيل : أراد بالنظر الى النار الدنو منها والصلى بها ، لان النظر الى الشيء انما يتحقق عند الدنو منه .

والامام النووى فى شرحه للحديث (٥ : ٣٦٣) يقول : ان فيه " هتك استار الجواسيس بقراءة كتبهم ، سواء كان رجلاً أو امرأة . وفيه هتك ستر المفسدة اذا كان فيه مصلحة ، أو كان فى الستر مفسدة . وإنما يندب الستر اذا لم يكن فيه مفسدة . ولا يفوت به مصلحة وعلى هذا تحمل الاحاديث فى الندب الى الستر .

وهكذا اعتبر الاستثناء الذى ادت اليه ظروف الحرب عند بعض الفقهاء كأنه هو الاصل ، وصار الاصل وهو المبادئ العامة فى القرآن الكريم المانعة من التجسس مثل قوله تعالى : " ولا تجسسوا " . على ما سبق بيانه والحديث الذى جاء فى بيان الآية (البخارى ، كتاب الأدب ، باب يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن ان بعض الظن اثم ولا تجسسوا) حيث يقول صلى الله عليه وسلم : " اياكم والظن فان الظن اكذب الحديث . ولا تحسسوا ولا تجسسوا ولا تناجسوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله اخواناً " ^(١) صار كذلك كانه قابلاً للخروج عليه دون ضرورة قاهرة .

(١) الحديث رواه مسلم (٥ : ٤٢٦-٤٢٨) باب تحريم الظن والتجسس والتنافس والتناجس ونحوها . وشرحه النووى فقال : قال بعض العلماء : التحسس ، بالحاء الاستماع لحديث القوم ، وبالجميم : البحث عن العورات . وقيل بالجميم : التفتيش عن بواطن الامور واكثر ما يقال فى الشر . وقيل : بالجميم : أن تطلبه لغيرك . ، وبالحاء ان تطلبه لنفسك . قال ثعلب : هما بمعنى : وهو طلب معرفة الاخبار الغائبة والاحوال .
والحديث فى موطأ مالك ، كتاب حسن الخلق (ص ٦٦ طبع الشعب) .

٣- تحريم التصنت : روى البخارى ٥٤/٩ (كتاب التعبير ، باب من كذب فى حكمه) عن ابن عباس ان النبى ، صلى الله عليه وسلم ، قال : " من استمع الى حديث قوم وهم له كارهون ، او يغرون منه ، صب فى اذنيه الاتك يوم القيامة " رواه كذلك عن ابى هريرة . ورواه احمد بن حنبل (٢٤٦ : ١) عن ابن عباس " من يستمع الى حديث قوم وهم له كارهون صب فى اذنيه الاتك " وعن ابى هريرة (٥٠٤ : ٢) : " من استمع الى حديث قوم ، ولا يعجبهم ان يستمع حديثهم اذ يب فى أنه الاتك " ورواه ابو داود فى سننه ، كتاب الادب ، والترمذى والدارمى وغيرهم وعبارة ابن داود : " من استمع الى حديث قوم يغرون به منه صب فى اذنه الاتك يوم القيامة " .

وقد شرح ابن الاثير (النهاية فى غريب الحديث ١ : ٤٨) هـ هذا الحديث : الاتك : الرصاص الابيض ، وقيل : الاسود وقيل : هو الخالص منه .

٤- تحريم النظر فى خصوصات الغير : روى البخارى (كتاب الاستئذان ، باب الاستئذان من أجل البصر عن سهل بن سعد ، قال : " اطلع رجلاً من جحر فى حجر النبى ، صلى الله عليه وسلم ، ومع النبى ، صلى الله عليه وسلم مدرى يحك به رأسه ، فقال : " لو اعلم انك تنظر لطعنت بـه فى عينك : انما جعل الاستئذان من أجل البصر " . وعن انس بن مالك ان رجلاً اطلع من بعض حجر النبى ، صلى الله عليه وسلم ، فقام اليه النبى ، صلى الله عليه وسلم ، بمشقص او بمشاقص - فكأنى انظر اليه يختل الرجل ليطعنه " . - والحديث الثانى فى سنن ابى داود (١) :

(٦٨٩) باب فى الاستئذان ، واتبعه مباشرة بحديث عن ابى هريرة انه سمع رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يقول : " من اطلع فى دار قوم بغير اذنهم ففقدوا عينه فقد هدرت عينه " (١) . ثم جاء بحديث اخر عن أبى

(١) ابن الاثير ، النهاية ٤ : ٢٤٢ : " هدرت عينه ، أى : ان فقئوها ذهبست باطله ، لا قصاص فيها ولا دية ، يقال : هدر دمه يهدر هدرًا أى بطل " .

(١)

هريرة ان النبی ، صلى الله عليه وسلم ، قال : اذا دخل البصر فلا اذن .

وروى مسلم " كتاب الادب ، باب تحريم النظر في بيت غيره (٨٦٤ : ٤) -
(٨٦٦) الحديث الاول آنفا ، عن سهل بن سعد ، على نحو ما جاء به البخاري
تقريبا ، ثم جاء بروايات في المعنى نفسه ، ثم اضاف احاديث اخرى عن أبي
هريرة ، شرح ما يهمننا من الفاظها الامام النووي (في المكان نفسه) حيث قال
: " المدرى : حديدة يسوى بها شعر الرأس . وقيل : هو يشبه المشط .
وقيل : هو اعواد تحدد تجعل شبه المشط " . وقوله : " في جحر " : هو الخرق . وقوله
صلى الله عليه وسلم : " انما جعل الاذن من اجل البصر " " معناه : ان الاستئذان
مشروع ومأمور به ، وانما جعل لثلا يقع البصر على الحرام ، فلا يحل لاحد
أن ينظر في جحر باب ولا غيره مما هو متعرض فيه لوقوع بصره على امرأة
أجنبية .

وفي هذا الحديث جواز رمي عين المتطلع بشئ خفيف ، فلو رماه بخفيف
ففقأها فلا ضمان ، اذا كان قد نظر في بيت ليس فيه امرأة محرم . والله اعلم !
قوله : " فقام اليه بمشقص او مشاقص فكأنى انظر الى رسول الله صلى الله
عليه وسلم ، يختله ليطعنه " : اما " المشاقص " فجمع مشقص ، وهو نصل
عريض للسهم . يختله : يراوغه ويستغفله وقوله : ليطعنه ، بضم العيمن
وفتحها ، الضم أشهر .

قوله ، صلى الله عليه وسلم : " من اطلع في بيت قوم بغير اذنهم فقد حلل
لهم ان يفتقروا عينه " قال العلماء : محمول على ما اذا نظر في بيت الرجل

(١) جاء ابو داود كذلك بحديث رواه عثمان بن أبي شيبة عن هزيل ، قال : جاء
رجل - قال عثمان " سعد بن أبي وقاص " - فوقف على باب النبی ، صلى
الله عليه وسلم ، يستأذن ، فقام على الباب - قال عثمان : مستقبل الباب -
فقال له النبی ، صلى الله عليه وسلم : هكذا عنك ، أو هكذا (اي تنح عن
الباب الى جهة أخرى ، فانما الاستئذان من النظر .

فرماه بخصاصه ففقاً عينه . وهل يجوز رميه قبل انذاره ؟ - فيه وجهان ، لاصحابنا : اصحابهما جوازه ، لظاهر هذا الحديث . والله اعلم .

والحق ان الخلاف الذى اشار اليه الامام النووى آنفا جعله يتردد على نحو ما انما اثاره أبو بكر الرازى الجصاص (أحكام القرآن ٣ : ٣١٢-٣١٣) الذى جاء بالاحاديث المتقدم ذكرها ثم قال : زعم الشافعى ان من اطلع فى دار غيره ففقاً عينه هو هدر ، وذهب الى ظاهر هذا الخبر ، ولا خلاف انه لو دخل داره بخير اذنه ففقاً عينه كان ضامناً ، وكان عليه القصاص ان كانوا عامراً والارش ان كان مخطئاً ، ومعلوم أن الداخل اطلع ، وزاد على الاطلاع الدخول . وظاهر الحديث مخالف لما حصل عليه الاتفاق . فان صح الحديث فمعناه ، عندنا (الحنفية) فيمن اطلع فى دار قوم ناظراً الى حرهم ونساءهم فممنوع فلم يمتنع ، فذهبت عينه فى حال الممانعة ، فهذا هدر ، وكذلك من دخل دار قوم ، أو أراد دخولها فمانعوه فذهبت عينه او شئ من اعضائه فهو هدر ، ولا يختلف فيه حكم الداخل والمطلع فيها من غير دخول . فاما اذا لم يكن ألا النظر ، ولم تقع ممانعة ولا نهى ثم جاء انسان ففقاً عينه ، فهذا جان يلزمه حكم جنائته بظاهر قوله ، تعالى : " والعين بالعين " .

وقد رد على الرازى الجصاص فى هذا فخر الدين الرازى (الشافعى) فى تفسيره (٦ : ٢٥٢-٢٥٨) بعد أن جاء بالاحاديث السابق ذكرها ، قال : " قال أبو بكر الرازى : هذا الخبر يرد لو روده على خلاف قياس الاصول ، فانه لا خلاف انه لو دخل - الى قوله الذى قدمناه آنفا - " والعين بالعين " - ثم قال فخر الدين الرازى رداً : " واعلم ان التمسك بقوله ، تعالى : " والعين بالعين " فى هذه المسألة ضعيف ، لانا اجمعنا على أن هذا النص مشروط بما اذا لم تكن العين مستحقة ، فانها لو كانت مستحقة لم يلزم القصاص . فلم قلت : ان من اطلع فى دار انسان لم تكن عينه مستحقة : وهذا اول المسألة . أما قوله : انه لو دخل لم يخبر فقاً عينه فكذلك اذا نظرنا قلنا : الفرق بين الامرين ظاهر ، لانه اذا دخل علم القوم دخوله عليهم فاحترزوا عنه وتسترأ . فاما اذا نظر فربما لا يكونون عالمين بذلك فيطلع منهم على ما لا يجوز الاطلاع عليه ، فلا يبعد ، فى حكم الشرع ، ان يبالغ ، هاهنا ، فى الزجر حسماً لىاب هذه المفسدة . وبالجمله ، فرد حديث رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، لهذا القدر من الكلام غير جائز " .